معادلة الغِنى والفقر

التدقيق اللغوي

شروق محمد سلمان

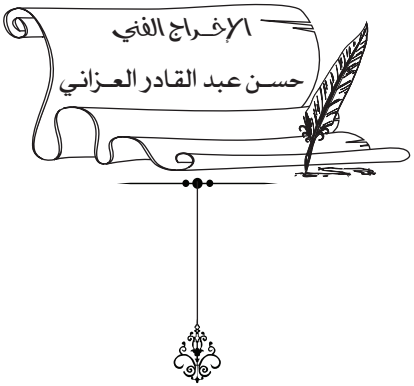

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

ISBN 978 - 9948 - 499 - 36 - 7

حقوق الطبع محفوظة

لدائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي
إدارة البحوث

هاتف: ٦٠٨٧٧٧٧ ٤ ٩٧١+ فاكس: ٦٠٨٧٥٥٥ ٤ ٩٧١+
الإمارات العربية المتحدة ص. ب: ٣١٣٥ - دبي
mail@iacad.gov.ae www.iacad.gov.ae

دائـــرة الشـــؤون الإســـلامية والعمـــل الخيـــري
Islamic Affairs & Charitable Activities Department

حكومة دبي
GOVERNMENT OF DUBAI

معادلة الغِنى والفقر

تأليف
الدكتور إبراهيم عبد اللطيف العبيدي
إدارة البحوث

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

وبعد: فيسر « **دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي - إدارة البحوث** » أن تقدِّم إصدارَها الجديد « **معادلة الغنى والفقر** » لجمهور القراء من السادة الباحثين والمثقفين والمتطلعين إلى المعرفة وخاصة في مجال الاقتصاد الإسلامي.

وهذه الرسالة تحتوي على مفاهيم مفيدة ومضامين أكيدة للتمييز بين الغنى والفقر الحقيقيين، وأهم الصفات التي تلازمهما وتميزهما، في بيان لطيف يجمع بين الدليل والتحليل.

وهـذا الإنجـاز العلمـي يجعلنا نقـدم عظيم الشـكر والدعـاء **لأسرة آل مكتـوم** حفظهـا الله تعـالى التـي تحب العلم وأهلـه، وتؤازر قضايا الإسـلام والعروبة بكل تميز وإقـدام، وفي مقدمتهـا **صاحـب السـمو الشـيخ محمد بن راشـد بن سـعيد آل مكتـوم**، نائب رئيـس الدولة، رئيس مجلـس الـوزراء، حاكـم دبي الذي يشـيد مجتمـع المعرفة، ويرعى البحث العلمي ويشجع أصحابه وطُلابه .

راجـين الله العلي القديـر أن ينفع الأمة بهـذا العمل، وأن يرزقنـا التوفيق والسـداد، وأن يوفق الجميع إلى مزيد من العطاء على درب التميز المنشود.

وآخـر دعوانا أن الحمـد لله رب العالمـين، وصلَّى الله عـلى النَّبـي الأمي الخاتم سـيّدنا محمد وعـلى آله وصحبـه أجمعين.

الدكتور سيف راشد الجابري
مدير إدارة البحوث

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهناك قضية حَرية بالاهتمام، فلربّما تساءل الكثير مِنّا عن سبب نفادِ مالِ الشخص - من ثروة وراتب ومال مدّخَر ونحوه - رغم كثرته، وبقاء مال شخص آخر وديمومته - رغم قلّته - بحيث يستطيع تغطية نفقاته وأسرته بيسر وبركة!

مسألة تبدو محيرة، ترى ما السبب في رؤية كثير من الناس من الموظفين أصحاب الوظائف الجيدة، والتجار وأصحاب الصفقات الرابحة والمهن ذات المردود المالي الجيد، ترى أموالهم سرعان ما تتبخر، وكأنها سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا!

فما السبب الحقيقي في ذلك كله؟

ربما يكون السبب في مظهر من المظاهر التي سنستعرضها:

١- فبالرغم من شح الإنسان وحرصه على ماله إلا أنه قد يبتلى بزوجة غير مدبِّرة، أو بطبعها تكون مبذِّرة غيرَ مبالية، فتفرِّق في دقائق من الزمن من حيث تشعر أو لا تشعر ما يحرص الزوج على جمعه في أيام وشهور.

٢- وقد يكون تسديد ما بذمة الشخص من القروض والديون غير المبرَّرة، التي ألزم كثير من الناس أنفسهم بها، دون ضرورة أو حاجة حقيقية لها، من أسباب نفادِ ذلك المال.

٣- وقد يكون سعيُ الكثير من الناس خلف إشباع ظاهرة الاستهلاك التّرَفيّ غير المبرَّر، التي انتشرت وعَمَّتْ

في كثير من المجتمعات بعدة صور[١]، جزءاً كبيراً من المشكلة.

٤- وقد تكون ألفةُ بعض العادات السيئة التي تنخر بمال وجسم الإنسان دون أن يشعر، مثل شرب الدخان مثلاً، وما يتبع ذلك من مراجعات الأطباء وثمن العلاج والأدوية، سبباً آخر من أسباب المشكلة.

٥- وقد يكون عدمُ ترتيب المصروفات وفق سُلّم الأولويات، في تقديم الأهم على المهم، إذ ربما بدأ شهره في اقتناء الأشياء غير المهمة دون أن يحسب حساب حاجته الأصلية للأهم منها، مما يضطره اضطراراً آخر الشهر

(١) للباحث دراسة مفصلة بالموضوع، بعنوان: (وقفة مع ظاهرة الاستهلاك الترفي: عمليات التجميل، الماركات، الموضات، أنموذجاً).

للحصول على الأمور الضرورية المهمة، وبذلك يكون قد حمّل نفسه أكثر من طاقته.

٦- وقد يكون عدم تنظيم وضبط المصروفات الاستهلاكية الدورية، كوقود السيارة، وفاتورة الماء والكهرباء، وفاتورة الهاتف والانترنت، ورصيد الهاتف النقال، وغيرها، والتعامل مع هذه الأشياء دون حساب دقيق وتنظيم في الاستهلاك سببا مهماً من أسباب نفاد الراتب.

٧- وقد يكون ظهور التقنيات الحديثة وتطورها يوماً بعد آخر، وظهور الأجيال الرقمية من الأجهزة الإلكترونية في أوقات سريعة متتالية، وشغف الكثير من الناس بها، لدرجة الهوس والحصول عليها دون دراسة للفائدة المرجوّة منها، سبباً يضاف إلى بقية أسباب الموضوع.

ورغـم تعدد هذه المظاهر فإن جواب التسـاؤل الذي طرحنـاه في بدايـة هذه الدراسـة والتي سـمّيناها بالمعادلة المحـيرة، لا يبدو شـافياً مقنعـاً، إذ قد تكون هـذه المظاهر أسـباب المشـكلة الحقيقيـة فعـلا، لاسـيما إذا مـا تجمّعت كلُّهـا أو أغلبهـا في الشـخص أو الأسرة الواحـدة، ولكن رغـم كل هذا فإنها ليسـت السـبب الرئيـس في الموضوع، إذ يتعلق هذا الأمر (الموازنة) بين الغني الظاهر ومتوسـط الحـال الشـاكر- والله أعلم - بمسـألة قلبية نفسـية بحتة، تختلف من شـخص لآخر، وقد لا تبدو للعيان في كثير من الأحيان، إذ غالباً ما تكون حسـيّة تكمن بشـعور الإنسان الداخلي بالغنى القلبي والرضا النفسي بما آتى الله عز وجل الإنسـان من نِعم، وخصّه بها عن غيره ممن هو دونه، وإلى هـذا التعليل أشـار النبـي ﷺ بقوله: « **مَـنْ كانت الآخرة همَّهُ جعل الله غناه في قلبه وجمع له شـمله وأتته الدنيا وهي**

راغمة، ومَن كانت الدنيا همَّهُ جعل الله فقره بين عينيه وفرّق عليه شملَه ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدّر له »[١].

فبيّن النبي ﷺ في هذا الحديث، أن الناس صنفان، فمنهم من تكون الآخرة همَّهُ، ومنهم من تكون الدنيا همَّهُ، ومن هنا تبدو علاقة الصنفين بالسؤال المطروح، فلكلا الصنفين صفات ومظاهر، تتعلق بالآثار المترتبة عليهما التي بيّنها النبي عليه الصلاة والسلام، كما هي مُبَيّنة على النحو الآتي:

(١) رواه الترمذي في سسنه برقم ٢٤٦٥ وابن ماجة في سننه بلفظ متقارب برقم ٤١٠٥. والحديث لم يحكم عليه الترمذي بشيء من الصحة والضعف، وفي سنده يزيد الرقاشي وهو ضعيف على ما قال الحافظ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب بعد ذكر هذا الحديث ويزيد قد وثق ولا بأس به في المتابعات. ينظر: الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ، بيروت، ٤/ ٥٧.

فأما صفات و مظاهر أصحاب همِّ الآخرة كما في الحديث الشريف فتكمن بما يلي:

١ - جمع الله له شمله.

٢ - أغنى قلبه.

٣- أتته الدنيا راغمة إليه.

وأما صفات ومظاهر أصحاب همِّ الدنيا كما في الحديث الشريف، فتكمن بما يلي:

١ - فرّق الله عليه شمله.

٢ - وجعل فقره بين عينيه.

٣- حظه من الدنيا ما كُتب له فقط.

ومن أجل الوقوف على أسس هذه المعادلة، نقف وقفات يسيرة مع كل فقرة من كلا الصنفين، إذ نستنتج من هذا الحديث الشريف أن موضوع هذه المعادلة شائك

بعـض الـشيء، إذ كيـف للمـرء أن يعيش هـو ومَن يعول مِـن زوجة وأولاد، ولربـما يكون معه والـداه أو أحدهما، دون أن يعمل ويكسـب ويحسـب ويخطط، كم يبلغ دخله وكم سـيصرف منه وماذا سـيصنع في غده؟! والدنيا اليوم مـن حوله أصبحت كلها عبارة عـن تعاملات والتزامات مالية، محكومة من حولنا بلغة الأرقام والحسابات، فكيف السـبيل في ضـوء ذلـك كله؟ هـل يفهم من هـذا الحديث أن عـلى المـرء إذا مـا أراد أن تكـون الآخرة هَمَّـهُ أن يعيش فقيرَ الحال مسـكيناً مثلاً، فلا يعمل و لا يكسـب، وينتظر صدقـات هذا وذاك عليه، لينجو بذلـك من أن يكون من أصحاب هَمِّ الدنيا!

الحقيقة أن علماءنا قد أشـبعوا الموضـوع بحثاً، لتعلُّق هـذا الموضـوع بالتوكل عـلى الله تعالى حق التـوكل، وهو

عمـل قلبي مجرد، بحيث يعيش المـرء من خلاله بمعية الله تعـالى، إذ يُعـرَّف التـوكلُ بأنه تفويض الأمـر إلى الله تعالى والثقة به مع ما قدر له من التسبب[١].

والأخـذ بالأسـباب يكمن بمباشرة السـعي والعمل واسـتفراغ الجهد، مع مراعاة أن الأخذ بالأسـباب يتمثل بعدة أمور أهمها السـعي والحركـة، بدليل قول النبي ﷺ: « **لـو أنكم توكلتم عـلى الله حقَّ توكلـه لرزقكم كما يرزق الطـير تغدو خماصـاً وتروح بطانـاً** »[٢] فقوله تغدو خماصاً وتروح بطانـاً: أي خاوية البطون فارغـة ثم تروح تبحث فتعود بطاناً أي ممتلئة، فهي لم تجلس بدون حركه أو سعي،

(١) مختصر شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٥هـ، ١/ ٣٦.

(٢) رواه الترمـذي في سـننه برقـم ٢٣٤٤ وقـال حديـث حسـن صحيح.

وإنما خرجت وبحثت بها يعني أنها قد سعت بنفسها حتى وجدت ضالتها، قال المناوي: (تغدو خماصاً) جمع خميص أي جائع (وتروح) ترجع (بطاناً) جمع بطين أي شبعان أي تغدو بكرة وهي جياع، وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف، فالكسب ليس برازق بل الرازق هو الله فأشار بذلك)[1]

وعليه فإن ترك العمل بحجة التوكل يكون مرفوضاً، لأن الطير ما رزق إلا بالسعي والحركة.

والسؤال هو: ما هو السبيل لمن أراد أن لا يكون من أصحاب هَمّ الدنيا؟

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير، الإمام الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ٢/ ٣٠٦.

من الكلمات التي تذكر في هذا المقام، ما كان يوصي به أحد الصالحين تلميذه عند خروجه للعمل بقوله: يا بني ليكن الدرهم الذي تحصل عليه في جيبك، لا في قلبك. أي لا بد من العمل والسعي والكسب، لأننا مأمورون بالعمل أصلاً، ولكن على شرط أن لا يؤثر ذلك على كيانك بحيث تعيش من أجل الكسب فحسب، ولذلك ورد في دعاء النبي ﷺ: « **ولا تجعل الدنيا أكبرَ هَمِّنا** »[1] فلم ينكر النبي ﷺ وجود هَمٍّ في الدنيا، إذ الدنيا بذاتها هَمٌّ وفيها مجموعة هموم، قال المباركفوري في شرحه للحديث: (أي لا تجعل طلب المال والجاه أكبر قصدنا أو حزننا، بل اجعل أكبر قصدنا أو حزننا مصروفاً في عمل الآخرة، وفيه أن قليلاً من الهمِّ فيما لا بد منه في أمر المعاش

(١) رواه الترمذي في سننه برقم ٣٥٠٢ وقال عنه حديث حسن غريب.

مرخَّص فيه، بل مستحب، بل واجب)[١]. ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يدعو الله عز وجل ليُعلِّم الأمة أن لا يطغى هَمُّ الدنيا على بقية الهموم حتى يسيطر ويكون هو الهمّ الأكبر.

لذلك ورد في الحديث قوله ﷺ: « **من جعل الهموم هَمّاً واحداً همَّ المعاد كفاه الله هَمَّ دنياه، ومن تشعّبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك** »[٢]

قال شُراح الحديث: قوله ﷺ: (من جعل الهموم) أي

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن ابن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٩/ ٣٣٤.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه برقم ٤١٠٦. بإسناد ضعيف وله شاهد من حديث أنس أخرجه الترمذي في جامعه. ينظر: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكناني، تحقيق محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، ١٤٠٣هـ، بيروت،١/ ٣٨.

الهمـوم التـي تطرقه من محـن الدنيا وكدرها ومُـرِّ عيشـها (هماً واحداً) قال الطيبي: هم بالأمر يهم إذا عزم عليه: أي مَـن اقتصر على همٍّ واحد من الهموم وترك سـائر المطالب وبقيـة المقاصد، وجعل كأنه لا همَّ إلا همٌّ واحد (كفاه الله هَمَّ دنياه) المشـتمل على الهموم، يعني كفاه هم دنياه أيضاً، (ومَن تشعّبت) وفي نسخة (تشعب به الهموم) أي تفرقت به يعني مرة اشـتغل بهذا الهم وأخرى بهَمٍّ آخر وهلم جرا (أحوال الدنيا) بدل من الهموم (لم يبال الله) أي لا ينظر إليه نظر رحمة (في أي أوديتها) أي أودية الدنيا، أو أودية الهموم (هلك) يعني لا يكفيه هَمُّ دنياه ولا هَمُّ أخراه، فيكون ممن خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين[1].

(١) مرقـاة المفاتيح شرح مشـكاة المصابيح، علي بن سـلطان القاري، تحقيـق جمال عيتـاني، دار الكتب العلميـة، بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ١/ ٤٧٥.

وبالعودة إلى موضوع هذه الرسالة فإننا نستطيع أن نقسم الصنفين المذكورين بالحديث الشريف كُلاً وفق صفاته وأحواله:

فأما الصنف الأول أصحاب هَمِّ الآخرة فإنهم مختلفون تماماً في نظرتهم للمال وللدنيا بأسرها، فقد غمرهم الرضا فرضوا بما آتاهم الله تعالى في السراء والضراء، فتساوى عندهم السَّلْب والعطاء، فانعكس ذلك على حياتهم في نظرة متوازنة، فأثمر ذلك ما يلي:

١ - **جمع الله شمله**: قال شراح الحديث وقوله ﷺ: « **جمع الله شمله** » (أي أموره المتفرقة بأن جعله مجموع الخاطر بتهيئته أسبابه من حيث لا يشعر به)[1] وذلك بعدة صور، منها على سبيل المثال: اتحاد أفراد أسرته، ولربما

(١) مرقاة المفاتيح، ٩/ ٥٠٦.

حتى أفراد قبيلته من حوله، فلم يؤثر غناه على ذلك ولا فقره، فشمله ملموم، وصفّه متماسك، وبيته محصَّن، لا يأبه بالعواصف إذا هبّت، ولا يرتخي إذا ادلهمّ ظلامُ الليل، فديوانه عامر وبابه مفتوح وإن كان على قدر حاله، ترى البركة تفيض منه فيضاً، غير آبه بما يواجهه من هموم مهما كبرت وازدادت، لأنه يعدها هموماً مرحلية جزئية، فتراه في مراحل حياته مستقرَّ البال هادئ الطبع، حتى إذا ما أدركته شيخوخته ترى أولاده وأحفاده مِن حوله، فيوصيهم ويحثهم على الخير ويرشدهم إليه، وما ذلك إلا أثر من آثر البركة التي صبها الله تعالى عليه، فلّم شمله وجمع عليه أمره.

ومَن جمع الله عليه شمله وَهَبَهُ من النعم ما يجعله يسمو على الصغائر، فتجده صاحب همة عالية، ونفس

زاكيـة، صافي الذهـن، قوي الحافظة، غيرَ مـتردِّد في أمره، متجنبـاً في ذلـك سـلوك صفـات الحمقى، ويتجـلى ذلك في تيسـير الله تعـالى عليـه جمـع المـال مـن طريـق الحلال، وحفظـه مـن تشـتّته في الصفقـات الخـاسرة غير محسـوبة النتائج والعواقب، وغيرهـا من الصور التي يرى فيها أثر نعمـة الله تعـالى عليه فيهـا، وفوق ذلك كله تـرى مَن جمع الله لـه شـمله قد كتـب له القبـول في الأرض فـتراه يألف ويؤلـف، لا يكره أحـداً، ولا يكرهه أحـد، مصدقاً لقول النبـي ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال: « **إذا أحبّ الله عبـداً نادى جبريل إني قد أحببت فلاناً فأحبه. قال فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلـك قـول الله** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾، وإذا **أبغـض الله**

عبداً نادى جبريل إني أبغضت فلاناً فينادي في السماء ثم تنزل له البغضاء في الأرض ». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[١].

٢- جعل الله تعالى غناه في قلبه: الفقر والغنى مسألة نسبية، فقد بيّن النبي ﷺ أن ابن آدم لا يشبع من المال وإن آتاه الله مال قارون، حيث قال النبي ﷺ: « **لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب** »[٢].

وتلك هي فطرة الإنسان التي جُبِلَ عليها، فقد وصف الله الناس بحب الشهوات وعدّد أصنافاً منها، فذكر الله تعالى الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام

(١) رواه الترمذي في سننه برقم ٣١٦١وقال حديث حسن صحيح.
(٢) رواه البخاري في صحيحه، برقم ٦٠٧٢.

والحرث، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[1] وعلى وفق هذه الفطرة أمرنا الله تعالى بالتوازن والاعتدال في التعامل مع المال، فعن عروة وسعيد بن المسيب أن حكيم ابن حزام قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثلاث مرات، ثم قال رسول الله ﷺ: « **يا حكيم إن هذا المال حلوة خضرة، فمَن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومَن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل، ولا يشبع، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى** »، قال حكيم فقلت: (يا رسول الله والذي بعثك

(١) سورة آل عمران الآية ١٤.

بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا)[١] والغنى الذي نتحدث عنه (الغنى القلبي) يظهر لنا في فعل حكيم رضي الله عنه، فقد قال عروة وسعيد: فكان أبو بكر يدعو حكيماً فيعطيه العطاء فيأبى، ثم كان عمر بن الخطاب يعطيه فيأبى، فيقول عمر إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم بن حزام أني أعرض عليه حقّه الذي قسم له من هذا الفيء فيأبى أخذه. قال فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي)[٢].

وفي حديث آخر يبين النبي ﷺ حقيقة الموضوع وبُعْدَه إذ يقول: « **ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى**

(١) رواه الترمذي في سننه برقم ٢٣٦٣ وقال حديث حسن صحيح.
(٢) المصدر نفسه

غنـى النفس »[١] يقول الإمام النووي في شرحه للحديث: (الغنى المحمود غنى النفس وشبعها وقلة حرصها لا كثرة المـال مع الحرص على الزيادة؛ لأن من كان طالباً للزيادة لم يستغنِ بما معه فليس له غنى)[٢] وهذا يعني أن القناعة إذا فُقدت من صاحب المال فإنه يظل فقيراً مهما أوتي من أموال وكنوز؛ لأن حاجته إلى الزيادة لا تنتهي ونفسه لا تشبع.

٣- أتته الدنيا وهي راغمـة إليه: قال شراح الحديث: (وأتته الدنيا وهي راغمة) أي ما قدر وقسم له منها وهي ذليلة حقيرة تابعة له، لا يحتاج في طلبها إلى سـعي كثير بل تأتيه هيِّنةً ليِّنةً على رغم أنفها)[٣].

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم ١٠٥١.

(٢) صحيـح مسـلم بـشرح النـووي، أبو زكريـا يحيى بـن شرف بن مـرّي النـووي، دار إحياء الـتراث العـربي، ١٣٩٢هـ، بيروت، ٧/ ١٤٠.

(٣) مرقاة المفاتيح،٦/ ٥٠٦.

وتتجلى هذه الميزة بإقبال الدنيا ساعية إلى المقبل على الآخرة، حتى قيل إن الدنيا تشبه الظل، إذ كلما مشى المرء خلف ظله هرب منه، وكلما تركه تبعه الظل نفسه.

وكما ورد فإن رزق الإنسان مضمون مكفول بكل الأحوال، باعتبار أن الله قدّره وكتبه عليه منذ مجيء المَلَك إليه وهو لا يزال جنيناً في بطن أمه، لا بل ورد أنه يسعى إليه كما يسعى إليه أجله، فقد جاء عن النبي ﷺ: « **إن الرزق ليطلبُ العبدَ كما يطلبه أجلُه** »[1] ومتى ما استقرت هذه الحقيقة في نفس الإنسان ووعاها قلبه واطمئن بها، علم أن رزقه لم يذهب لغيره، فصار شعاره الرِّضا، مع

(١) رواه ابن حبان في صحيحه برقم ٣٢٣٨، و البزار والطبراني في الكبير إلا أنه قال: أكثر مما يطلبه أجله، قال الهيثمي: ورجاله ثقات، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، ٤/ ٧٢.

ضرورة التذكير بأن هذا الأمر لا يعني ترك العمل جملة، كما ذكرنا أول هذه الرسالة بحجة التوكل، إذ التوكل الحقيقي لا يكون توكُّلاً إلا إذا أخذ معه بالأسباب.

ولله در أبي العتاهية إذ يصف الدنيا وعلاقتها بالمقبلين إليها والمدبرين عنها وصفاً دقيقاً، رائعاً، إذ يقول(١):

أرَى الدّنْيا لمنْ هيَ في يَدَيْهِ
عَذاباً، كُلّما كَثُرَتْ لَدَيْهِ
تُهينُ المُكرِمينَ لها بصُغْرٍ
وَتُكرِمُ كلّ مَن هانَتْ علَيهِ
إذا استَغنَيتَ عَن شيءٍ، فدَعهُ
وخُذ ما أنتَ مُحتاجٌ إليه

(١) ديوان أبي العتاهية ١/ ١٩٠.

وأمـا الصنف الثاني أصحاب هـمِّ الدنيا فنرى الطمع قد غمرهم والجشع قد أعمى بصيرتهم، شعارُهم الحرص، وطريقتُهـم البخـل، وديدنهـم شـكوى الحـال والتظاهـر بالافتقار، لذلك فمن تحقق ذلك فيه فقد:

١ - فرّق الله تعالى شمله:

قال المنذري في الترغيب والترهيب: (فرّق عليه حاله وصناعته ومعاشـه وما هو مهتم به وشعّبه عليه ليكثر كَدُّهُ ويعظم تعبُهُ)[١]

والواقع يشـهد بذلك فكم رأينا من أصحاب الملايين ممن جمع فأوعى، لكنه قد يكون مقابلَ ذلك قد ضيّع أسرته، ولم يسـتطع أن يشـعر بالسـعادة التي حُرم منها، والتي قد يكون غُمر بها مَنْ هو دونه، فتراه متردداً دائماً قلقاً، يشـعر

(١) الترغيب والترهيب للمنذري، ٤/ ٥٧.

بالاكتئاب والحيرة في كثير من تصرفاته وتعاملاته، حتى انعكس ذلك على أفراد أسرته، فنرى عقوقاً من أبنائه تجاهه، وشجاراً مع زوجته، وخصاماً مع جاره، وهكذا حتى يبدو العالم من حوله ضيّقاً به، وتتجلى صور تفريق الشمل بأكثر من مظهر:

* فكم سمعنا وشاهدنا مِن أصحاب الأموال الكبيرة والأرصدة الضخمة مَنْ يعاني من مرض مزمن لازمه في حلِّه وترحاله، حرمه من لذة الطعام والشراب، الذي يملك أن يشتريه، ولكنه لا يملك أن يتذوقه.

* وكم رأينا من هؤلاء الأغنياء مَن أصبح بين عشية وضحاها فقيراً معدماً لا يملك شيئاً، بصفقة خسرها أو أسهم اشتراها وهبطت قيمتها.

* وكم شاهدنا ممن هو فقير الحال أصلاً إلا أن عينه على هذا وذاك، يحسد هذا وينظر ذاك، ورغم ذلك يزداد فقراً على فقره لعدم قناعته ورضاه.

* وكم شاهدنا مَن يجمع المال ويتعب ويكد في جمعه ليلاً ونهاراً، لينفقه في الملذات المحرمة.

وكم شاهدنا مَن يجمع المال ويتعب في تحصيله وربما يبخل على نفسه، يبتليه الله تعالى بأسرة وزوجة تبعثر ما يجمع، وتشتِّت ما يدّخر.

٢- وجعل فقره بين عينيه.

قال المناوي: أي يشاهده دائماً [١].

* والواقع يبين كثيراً من هذه الصور المؤلمة إذ يكثر حديث التشكي دائماً من الأغنياء، وأنه تعرض لخسارة

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي، ١/ ٢٩٥.

قاسية في كذا، وأنه تعرض لهبوط حاد في قيمة أسهمه التي اشتراها في يوم كذا، فلا يتذكر إلا الصفقات الخاسرة، وتراه لم يُحدّث بنعمة ربه عليه مرة في حياته، وكأن أيامه وعمره كله صفقات خاسرة، ولم يربح في حياته قط، فكما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1].

* وكم رأينا ممن هو في حقيقة أمره غنيٌّ ولكن لا يبدو عليه أي أثر من آثار نعمة الله عليه، فتراه رثَّ الثياب، بسيط المظهر لدرجة مبالغ فيها، وربما كان أفراد أسرته على هذه الشاكلة أيضاً، ترى كل ذلك عليه رغم ما يملك، ولا شكّ أن ذلك أثر من آثار الفقر الذي ضربه الله عز وجل بين عينيه يوم جعل الدنيا وتحصيلها أكبرَ همِّهِ.

(١) سورة سبأ الآية ١٣.

* وهنـاك صنـف آخر من الناس تراه فتح على نفسـه باب القروض والديون، من دون ضرورة ملجئة أو حاجة ماسّة، حتى اضطر إلى التخفّي من هذا والابتعاد من ذلك مخافـة المطالبة بالديـون والقروض المسـتحقة عليه، ولهذا روت أم المؤمنـين السـيدة عائشـة رضي الله تعالى عنها أن رسـول الله ﷺ كان يدعـو في الصـلاة: « **اللهـم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسـيح الدجال، وأعـوذ بـك من فتنـة المحيا وفتنـة الممات، اللهـم إني أعوذ بـك مـن المأثم والمغرم** ». فقال له قائل: ما أكثر ما تسـتعيذ مـن المغـرم فقـال: « **إن الرجـل إذا غـرم حـدث فكـذب ووعد فأخلف** »[1].

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم ٧٩٨.

٣- حظه من الدنيا المكتوب له فقط.

ولعل سائلاً يسأل ويقول وهل يعطى المرء غيرَ المكتوب له في الدنيا؟ والجواب على ذلك من وجهين:

الأول: فقد يحرم مما يطلب، قال شُراح الحديث: (« إلا ما كتب له » أي وهو راغم فلا يأتيه ما يطلب من الزيادة على رغم أنفه وأنف أصحابه)[١].

الثاني: فإن الرزق نوعان محتسب وغير محتسب.

فالرزق المحتسب: هو ما كان ضمن حسابات المرء وعلمه، ويتمثل ذلك بالراتب الشهري الذي يحصل عليه الموظف في الموعد المحدد في كل شهر من مؤسّسته أو شركته التي يعمل بها، وكذلك الربح الذي يقدره التاجر من صفقته التي يعقدها، وكذلك الربح الصافي الذي

(١) مرقاة المفاتيح ٩/ ٥٠٦.

يحصل عليه صاحب المتجر المحسوب ضمن حساباته مسبقاً قبل بيعه لبضاعته، والذي يحصل عليه بعد أن يسدد رسوم تأجير المحل وبقية المصروفات عليه، وكذلك صاحب المصنع، وهكذا دواليك، فكل هذا يدخل في إطار الرزق المحتسب، معلوم القدر والقيمة.

وأما الرزق غير المحتسب: فهو الرزق المكتوب والمقدر بعلم الله تعالى للمرء، لكنه لا يعلم به، ولم يدخله في حساباته، وله صور كثيرة، من ذلك على سبيل المثال: المكافأة التي يحصل عليها الموظف في وظيفته، فقد يقوم بأمر ما ضمن حدود عمله لكن مسؤوله يرى أنه قد قام بمجهود يستحق التكريم عليه فيكافئه، وهذه المكافأة غير الراتب الثابت المقطوع في نهاية الشهر المتفق عليه عند التعاقد، ومثال ذلك أيضا الوصية التي يوصي بها

المتوفى لشخص ما نتيجة موقف معين أو قرابة بعيدة أو ما شابه ذلك، وكذلك الهدية والهبة وسائر عقود التبرعات الأخرى التي تبذل من طرف إلى طرف آخر دون مقابل، ومنه قول الله عز وجل: ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[1].

والواقع يبين هذا الأمر ويثبته، فكم مرت ببعض الناس ظروف مادية عصيبة، وربما كانت عليهم التزامات مالية معينة، كأن يكون عقد صفقة تجارية مهمة وقد اعتمد في تمويلها على مبلغ كان يعوّل الحصول عليه من مصدر مضمون، أو يكون قد استحق عليه قسط إيجار المسكن مثلا، وقد تصرف بالمبلغ المعدِّ له قبل أجله بأمر آخر، مما

(١) سورة الطلاق الآية ٣.

أوقعه في حيرة من أمره في كيفية تسديد القسط المستحق عليه بعد مدة وجيزة، وربما لا يجد حتى مَن يقدم له المال على سبيل القرض أو الدين! فيكون قد حكم على نفسه أنه لم ينله من الدنيا إلا الرزق المحتسب دون سواه، نتيجة إقباله على الدنيا وتمسكه بها بجعلها أكبر الهموم.

هذه باختصار أبرز تبعات أصحاب الهم الدنيوي الذي يسعى في هذه الدنيا فيها سعياً حثيثاً من أجل جمع المال وتكديسه من غير مراعاة للحقوق المترتبة عليه، ودون الموازنة بين الدنيا والآخرة، وعدم التعامل مع حقيقة هذه الدنيا بأنها طريق المرور إلى الآخرة، وأنها ليست دار قرار أو استقرار، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾[1].

(١) سورة الهمزة، الآيات ١-٣.

وهـذه النظـرة التحليلية لقضيـة الغنـى والفقر تبقى نسـبيةً مختلفـة من شـخص لآخـر، إذ يعد الغنـى الإيجابي الـذي يـؤدي دوره في خدمـة المجتمـع صـورةً مـن صور توفيـق الله عز وجل وفضله على الإنسـان، إذ أشـكل هذا الموضـوع بحد ذاته (الغنى والفقر) عـلى الصحابة الكرام أنفسـهم، كما جـاء في الحديـث: أن فقـراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العُلا والنعيم المقيم. فقال: (وما ذاك)؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتـق. فقـال رسـول الله ﷺ: « **أفـلا أعلّمكـم شـيئاً تدركون به مَن سبقكم وتسبقون به مَن بعدكم، ولا يكون أحـد أفضل منكـم إلا مَن صنع مثلَ ما صنعتم؟** »، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: « **تسبِّحون وتكبرون وتحمدون دبر**

كل صلاة ثلاثاً وثلاثينَ مرة »، فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: « **ذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء** »[1].

نعم هو فضل الله وتوفيقه، فذاك هو الغنى المحمود الإيجابي الذي إن استثمره صاحبه بما يُرضي ربه عز وجل في كثرة طرق الخير، فإنه يكون قد فعل الكثير، فقد يُشغِل الأيدي العاملة وينقذ الناس من البطالة وشرورها، ويقدم للمجتمع السلعة النافعة الطيبة، ولم ينسَ حقوق المال وواجباته فيه، ومع هذا وذاك كله تجده لا يزهد بطاعة ربه، أو يقصر في شكره و ذكره سبحانه وتعالى، لأنه علم أن ما هو موجود لديه من أموال وثروات إنما هو مستأمَنٌ

(١) رواه مسلم في صحيحه، برقم ٥٩٥.

عليها، فالمال مـال الله تعالى، والملك ملكه عز وجل يرزق من يشاء بغير حساب: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

والحمد لله ربِّ العالمين

❁ ❁ ❁

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٦.

الخاتمة

هذه الدراسة المختصرة حاولت الإجابة على سؤال يطرحه كثير من الناس أو يجول في خاطرهم اليوم، مفاده: ما السر في اختفاء الأموال وتسربها من بعض الناس رغم كثرتها وتعدد مصادرها؟ في الوقت الذي تبقى وتستمر عند بعضهم الآخر رغم قلتها وانحسار مصادرها؟

جمعت هذه الدراسة عدة أسباب ظاهرة للإجابة عن هذا السؤال، لكن جميعها تبدو غير شافية ولا كافية!

فكان الجواب يكمن في موضوع مهم يفتقده كثير ممن يشكو من هذه الظاهرة اليوم، ذلكم هو الغنى القلبي.

والله أعلم.

❁ ❁ ❁